الاستلزام الحواري في شعر توفيق أحمد قصيدة "دمشق الشَّام" أنموذجاً

د. منال عبد القادر سعد الدِّين*

(الأيداع: 15 آيلول 2025، القبول: 23 تشرين الثاني 2025)

الملخَّص:

يدرس البحث ظاهرة الاستلزام الحوارِي في شعر توفيق أحمد، فيتناول تعريف الاستلزام الحواري وأنواعه، ويدرس مبدأ التَّعاون والقواعد الحوارية المُتعلِّقة بهِ، كما يفرِّق بين خصائص الاستلزام الحواري والعرفي، ويُحلِّل ظاهرة الاستلزام الحواري في قصيدة "دمشق الشَّام" للشاعر "توفيق أحمد" من خلال دراسة كيفية التَّحوُّل من المعاني الصَّريحة المباشرة إلى المعاني الضِّمنية المُستَلزَمَة غير المباشرة التي خرجت إليها الصُّور البلاغيَّة والأساليب الخبريَّة والإنشائيَّة، والأغراض التَّداوليَّة التي تنجم عنها في ضوء سياق إنتاج الخطاب ومقامهِ، وأثر ذلك في إدراك مقاصد الشَّاعر وتأويل الخطاب الشِّعري.

الكلمات المفتاحية: الاستلزام الحواري، الاستلزام العرفي، مبدأ التَّعاون، القواعد الحوارية، المعاني الصَّريحة، المعاني الضِّمنيَّة.

* دكتوراه في اللغة العربية وآدابها (اللسانيَّات)

Conversational Implicature in Tawfiq Ahmad's Poetry

The poem "Damascus Alsham" as a model

*Dr. Manal Abdulkader Sadiddin

(RECEIVED: 15 SEPTEMBER 2025, ACCEPTED: 23 NOVEMBER 2025)

Abstract:

The research studies the phenomenon of conversational implicature in Tawfiq Ahmad's poetry. It studies the definition of conversational implicature and its types, studies co-operative principle and the conversational rules related to, and differentiates between the characteristics of conventional implicature and conversational implicature. It analyzes the phenomenon of conversational implicature in the poem "Damascus Alsham" by the poet "Tawfiq Ahmed" by studying how the transformation from direct explicit meanings to indirect implicit implied meanings that the rhetorical images, declarative and constructive styles indicate it, and the pragmatic purposes that result from them in the light of the context of the production of the discourse and its situation, and the effect of that on understanding the poet's intentions and interpreting the poetic discourse.

Keywords: conversational implicature, conventional implicature, co-operative principle , conversational rules, explicit meanings, implicit meanings.

*phd in Arabic language and literature (linguistics)

1_ المُقدِّمة:

التَّداوليَّة نظريَّةٌ لسانيَّةٌ حديثةٌ تتقاطع مع عدة علوم إنسانيَّة ومجالات أخرى مثل علم النَّفس وعلم الاجتماع وعلم اللغة وعلم النَّص والبلاغة والفلسفة، وتُعنى بالجانب الاستعمالي والإنجازي للغة، وتدرس اللغة من خلال استعمالها؛ لذا تهتم بتحقيق الوظيفة التَّواصلية الإبلاغية بين المُتكلِّم والمخاطب في ضوء السِّياق والمقام، وتُعنى بقصدية المرسل وتأثير ذلك على المُتلقِّي، وما يتمخَّض عن ذلك من دلالاتٍ وأغراضٍ، ويُعدُّ الاستلزام الحواري من أبرز فروع النَّظريَّة التَّداوليَّة، وقد ظهر مفهوم الاستلزام الحواري بدايةً على يد الفيلسوف البريطاني بول غرايس من خلال محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفاد في عام 1967وهي بعنوان "المنطق والحوار"، وذهب فيها إلى أنَّنا في خطاباتنا قد نعني ما نقول حرفيَّاً، وقد نعني عكس ما نقول، وقد نعني أكثر ممَّا نقول فنقصد معنىً آخر مضمراً غير مباشر، من هنا نشأت فكرة الاستلزام الحواري، فهو يتمحور حول كيفية الانتقال من المعاني الصَّريحة إلى المعاني المُستلزَمة، فالاستلزام الحواري يهتمُّ باستكشاف الدلالات الخفيَّة البعيدة المُضمَرة غير المباشرة انطلاقاً من الدَّلالات الصَّريحة المباشرة القريبة، وذلك من خلال مُعطيات السياق والمقام بغية فهم الخطاب والوقوف على قصدية المُتكلِّم والتَّأويل الدلالي الصَّحيح للنَّص، واستجلاء الأغراض البلاغيَّة والخروقات الحواريَّة المتأتِّية من مقاربة الخطاب وفق هذه الظَّاهرة التَّداوليَّة.

يسعى هذا البحث إلى مقاربة ظاهرة الاستلزام الحواري في قصيدة "دمشق الشَّام" للشاعر "توفيق أحمد" من خلال تقسيمه إلى محورين رئيسين: نعالج في الأوَّل هذه الظَّاهرة نظريًّا من خلال تعريفها وإلقاء الضوء على نشأتها وخصائصها وأنواعها، في حين نُجري في المحور الثَّاني دراسةً تطبيقيَّةً للاستلزام الحواري في نص "دمشق الشَّام"، ونختم البحث بأبرز النتائج التي توصَّلنا إليها.

2_ منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج التَّداولي والمنهج الوصفي في مقاربة القضايا ومعالجتها؛ لأنَّهما المناسبان لطبيعة البحث وأهدافه، فقد وُظِّفَ المنهج التَّداولي في دراسة المعاني والأغراض في سياق الاستعمال ومعطيات الخطاب، كما وُظِّفَ المنهج الوصفي في وصف ظاهرة الاستلزام الحواري وتحليلها في النَّص المذكور من خلال جمع المعلومات المُتعلِّقة بمصطلح الاستلزام الحواري من المصادر والمراجع ذات الصِّلة، ثم دراسة تلك المعلومات ومناقشتها وتحليلها وتفسيرها وتطبيقها على نص "دمشق الشَّام" بغية تحقيق الهدف المنشود من الدراسة وهو مقاربة ظاهرة الاستلزام الحواري نظريَّاً وتطبيقيَّاً في نص "دمشق الشَّام" للشاعر توفيق أحمد، ليصل البحث أخيراً إلى حزمةٍ من النتائج.

3_ أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيق أربعة أهداف:

1_ مقاربة ظاهرة الاستلزام الحواري نظريَّاً وتطبيقيَّاً في نص "دمشق الشَّام" للشاعر توفيق أحمد.

2_ استجلاء فاعلية السِّياق ومعطيات الخطاب في استكشاف خروقات القواعد الحواريَّة ودلالات التَّراكيب الخبريَّة والإنشائيَّة والصُّور البلاغيَّة وأثر كل ذلك في الوقوف على قصدية المُتكلِّم.

3_ دراسة العلاقة بين خروقات القواعد الحوارية لمبدأ التَّعاون من جهة، ودلالات التَّراكيب من جهةٍ أخرى.

4_ تحديد الغرض البلاغي الأبرز في النَّص المدروس.

4 _ عرض البحث والمناقشة والتَّحليل :

أ_ الدّراسة النَّظريَّة:

الاستلزام الحواري (التَّلويح الحواري) conversational implicature:

إنَّ التَّأويل الدَّلالي للجمل لا يمكن أن يقتصر على صيغها التَّركيبيَّة فقط؛ لأنَّ معاني الجمل لا تنحصر في صيغها الصوريَّة من نهيٍ وأمرٍ ونداءٍ واستفهامٍ وتمنٍّ؛ إذ لابدَّ من تأويل الجمل في ضوء مقامات إنجازها[1]، أي تأويلها وفق المنهج التَّداولي.

فالتَّداوليَّة (البراجماتيَّة / الذَّرائعيَّة) pragmatic تدرس خصائص اللغة خلال الاستعمال من جهة الدَّوافع النَّفسيَّة عند المُتكلِّمين وردود فعل المخاطبين والأنماط المُتَّبعة في الخطاب وموضوع الخطاب[2]، كما تُعنى بتحليل الأحداث اللغويَّة ووظائف النَّص/الخطاب وخصائصه خلال العمليَّة التَّواصليَّة[3].

ويُعدُّ الاستلزام الحواري من أبرز مجالات النَّظريَّة التَّداوليَّة وأكثرها تأثيراً، وترجع نشأته إلى أحد فلاسفة أكسفورد وهو الفيلسوف البريطاني بول غرايس Grice J.P الذي وضَع حجر الأساس في هذه النَّظريَّة ورسَم خطوطها الأولى[4].

يعتمد الاستلزام الحواري على المعنى المرتبط بدلالة السياق والمقام، فإذا كان معنى العبارة يعتمدُ على الاستنتاج فإنَّ هذا الاستنتاج يندرج في تضمين المُحادثَة "الاستلزام الحواري" عندما يكون معنى العبارة المُستَنتَج معلوماً للمتكلم لكنَّهُ ليس معلوماً للمخاطب مسبقاً[5].

ويُعرَّف الاستلزام الحواري بأنَّهُ: ((عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنَّهُ شيءٌ يعنيه المُتكلِّم ويُوحي بهِ ويقترحهُ، ولا يكون جزءًا ممَّا تعنيه الجملة بصورة حرفيَّة))[6] .

بمعنى أنَّ الاستلزام الحواري هو ((المعنى التَّابع للدلالة الأصليَّة للعبارة، أو هو ما يرمي إليه المُتكلِّم بشكل غير مباشر، جاعلاً مستمِعه يتجاوز المعنى الظَّاهري لكلامهِ إلى معنىً آخر))[7] .

لقد عمد غرايس إلى تصنيف العبارات اللغويَّة ضمن أنماط لتيسير عملية استنتاج معناها وفهمها فهماً سليماً؛ وذلك من خلال تقسيم الاحتمالات الدلاليَّة للجمل إلى قسمين: معانٍ صريحة ومعانٍ ضمنيَّة[8]، وفق الآتي[9]:

1_ المعاني الصَّريحة: وهي المعاني التي يُتوصَّل إليها من خلال صيغة الجملة وتتضمَّن:

أ_ المحتوى القضوي: وهو محصلة معاني مفردات الجملة المترابطة وفق علاقة الإسناد.

ب_ القوَّة الإنجازيَّة الحرفيَّة: وهي الدلالات النَّابعة من صيغ أسلوبيَّة معيَّنة كالإثبات والنَّفي، والتَّوكيد، والأمر، والنَّهي، والاستفهام، والنِّداء...الخ.

---

[1] _ المتوكل، أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثَّقافة للنشر والتَّوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986، ص93

[2] _ المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيّات ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، الدار البيضاء ، 2002م، ص 116

[3] _ فان دايك، تون.أ، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، علم النَّص(مدخل متداخل الاختصاصات)، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م ، ص 114

[4] _ يُنظَر:

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م، ص33

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2013م، ص15

[5] _ الحسن، شاهر، علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2001،ص 168_169

[6] _ عبد الحق، صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007م، ص78

[7] _ أدراوي، العيَّاشي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2011م، ص 18

[8] _ شاهين، أحمد فهد صالح، النَّظريَّة التَّداوليَّة وأثرها في الدِّراسات النَّحويَّة المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتَّوزيع، إربد، الطبعة الأولى، 2015م، ص23.

[9] _ صحراوي، مسعود، التَّداوليَّة عند العلماء العرب ((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي، دار الطَّليعة للطباعة والنَّشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005م، ص34_35

2_ المعاني الضِّمنيَّة: وهي المعاني التي لا تتحدَّد من خلال صيغة الجملة فقط؛ بل تتطلَّب معرفة معطيَات السِّياق والظُّروف المُحيطة لتحديدها، وتتضمَّن:

أ_ المعاني العرفيَّة: وهي الدَّلالات التي ترتبط بالجملة وتلازمها في مقام معيَّن، مثل دلالة الاقتضاء.

ب_ المعاني الحواريَّة: وهي الدلالات التي تتعلَّق بمقامات إنجاز الجمل، مثل: الدلالة الاستلزاميَّة.

ويرى غرايس أنَّ المُرسِل في العمليَّة الحواريَّة قد يقصد ما يقول، وقد يقصد أكثر ممَّا يقول، وقد يقصد عكس ما يقول. من هنا نشأت فكرة الاستلزام عند غرايس انطلاقاً من المفارقة القائمة بين المعنى الصَّريح أي ما يُقَال أو ما يصل إلى المتلقي من معنىً بشكل مباشر من خلال المعاني اللفظيَّة للكلمات والعبارات، وبين المعنى المُتضمَّن أي ما يُقصَد أو ما يصل إلى المُتلقِّي بشكل غير مباشر من خلال أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال[1].

فالاستلزام الحواري يُفهَم من خلال التَّفريق بين المظاهر الصِّدقيَّة للأقوال التي يتوافق فيها ما يُبلِّغه المقول من محتوىً مع محتواه المنطقي، والمظاهر غير الصِّدقيَّة للأقوال أي المُستَلزمَة حواريَّاً وهي ما يُبلَّغ من محتوىً بعد طرح ما يُقَال[2].

وبذلك تُقسَم الاستلزامات الخطابية إلى قسمين[3]:

1_ استلزام خطابي عرفي (وضعي) conventional implicature: وهو يُمثِّل المظاهر الصِّدقيَّة للأقوال، ويُحدَّد من خلال كلمات المقول وشكله فقط، فهو مبنيٌّ على ما تعارف عليه أبناء اللغة من استلزام بعض الكلمات دلالات معيَّنة لا تتغيَّر بتغيُّر التَّراكيب والسِّياقات.

2_ استلزام خطابي غير عرفي (غير وضعي): ينقسم إلى قسمين هما: الاستلزام الخطابي غير المحادثي (غير الحواري). والاستلزام الخطابي المحادثي (الحواري) conversational implicature وهو متغيِّر دائماً وفق السِّياقات التي يرد فيها.

لقد عُنِيَ غرايس بمظاهر الاستلزام الحواري، فكيف يمكن للمتكلِّم أن يعني غير ما يقول، وكيف يمكن للسَّامع أن يفهم غير ما يسمع، ووجد غرايس مخرجاً يُسهِّل معالجة مسألة الاستلزام الحواري في مبدأ التَّعاون co–operative principle بين المتكلِّم والمُخاطب بغية التَّوصُّل إلى حوار ناجح يُحقِّق المطلوب من العمليَّة التَّواصليَّة[4].

ويُقصَد بمبدأ التَّعاون: ((اجعل إسهامكَ الحواري حين تُدلي بهِ مناسباً للاتِّجاه والغاية المُتوخَّاة من المُحاورة التي تشارك فيها.[5]))

ومبدأ التَّعاون مبدأ حواري عام يشتملُ على أربعةِ مبادئ maxims فرعيَّة أو قواعد سلوكيَّة ((هي :

1_ مبدأ الكم quantity:

اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تُنقِص منهُ.

2_ مبدأ الكيف quality:

لا تَقُل ما تعتقد أنَّه غير صحيح، ولا تَقُل ما ليس عندك دليل عليه.

3_ مبدأ المُناسبة relevance :

اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

---

[1] _ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص33_34

[2] _ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، الطبعة الثانية، تونس، 2010م، ص 265_ 266

[3] _ يُنظَر :

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 266

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص34

[4] _ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص34_ 35

[5] _ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص29

4_ مبدأ الطَّريقة manner :

كُن واضحاً ومُحدِّداً: فتجنَّب الغموض obscurity، وتجنَّب اللبس ambiguity، وأوجز، ورتِّب كلامك.[1]))

يرى غرايس أنَّ هذه القواعد تُسهم في تحقق التخاطب المثالي بين المرسل والمتلقِّي فهي تتحكَّم بالعملية الحواريَّة وتضبطها من خلال التزامهما بمبدأ التَّعاون، فإذا اختلَّ أحدها من قِبل أيٍّ منهما ((وجب على الآخر أن يصرفَ كلام مُحاوره عن ظاهره إلى معنىً خفيٍّ يقتضيه المقام، وهذا المعنى المصروف إليه يحصل بطريق الاستدلال من المعنى الظَّاهر ومن القرائن، وذلك بالذَّات ما عُبِّر عنهُ بالاستلزام التَّخاطبي))[2] أو الحواري. بمعنى أنَّ الاستلزام الحواري يتأتَّى من خلال الخرق المقصود لإحدى هذه القواعد مع أخذ مبدأ التَّعاون بعين الاعتبار[3].

فالاستلزام الحواري هو أي معنىً يتخطَّى المعنى العرفي للتراكيب والجمل يُلوِّح به المُرسل ويستدل عليه المُتلقِّي اعتماداً على مبدأ التَّعاون وقواعده[4].

من جهةٍ أخرى تنقسم الاستلزامات الخطابيَّة المحادثيَّة إلى قسمين يتطلَّب كلٌّ منهما استخدام مبدأ التَّعاون ومبادئه الفرعيَّة (قواعد غرايس)، وهذا القسمان هما[5]:

1_ الاستلزامات الخطابيَّة المُحادثيَّة المُعمَّمة (الاستلزام الحواري المُعمَّم/التَّلويح المُعمَّم) generalized: لا تتطلَّبُ سياقاً خاصاً، بل تتعلَّق بالوحدات اللغويَّة وحدها، من هنا كانت أكثر التباساً بالاستلزامات الخطابيَّة الوضعيَّة لارتباطها بشكل المقول ومحتواه.

2_ الاستلزامات الخطابيَّة المُحادثيَّة المُخصَّصة (الاستلزام الحواري المُخصَّص/التَّلويح المُخصَّص) particularized: وهي منوطة بالسِّياق؛ إذ تستدعي سياقاً خاصَّاً لاستكناهها، كما تتعلَّق بالمناسبة occasion–specific والمعلومات الخلفيَّة المُشكِّلة للمعارف المُشتركة أي المعلومات المتبادلة بين طرفي الاتِّصال، ويتم التَّوصُّل إلى الاستلزام الحواري المُخصَّص من خلال عملية استنتاج تؤدي فيها قواعد غرايس دوراً جوهريَّاً.

تجدر الإشارة هنا إلى أنَّنا يمكن أن نتوصَّل إلى نوعي الاستلزام الحواري المُعمَّم والمُخصَّص من خلال الجملة ذاتها، كذلك يُشير لفنسن إلى أنَّ المعايير المُعتَمدَة في تقسيم الاستلزام الحواري وفق هذين النَّوعين تتقاطع وتتداخل، فالاستلزام الحواري المُخصَّص قد ينجم عن الاستخفاف بقواعد غرايس أو اعتمادها، ففي التَّهكُّم مثلاً تظهر ضرورة اعتماد السِّياق ووجود معلومات متبادلة بين المُرسل والمُتلقِّي لاستكناه المعنى المقصود من الجملة والابتعاد عن المعنى الحرفي، بالمقابل فإنَّ كثيراً من الاستعارات والمجازات لا تقتضي ضرورة العناية بالسِّياق في استكناه دلالاتها، كذلك فإنَّ الاستلزام الحواري النَّاجم عن تحقُّق قاعدة الصِّلة هو استلزام حواري مُخصَّص؛ لأنَّ ذلك يقتضي وجود قضيَّة محددة وفق سياق مُحدَّد[6].

لقد فرَّق غرايس بين الاستلزامين: الخطابي الحواري و الخطابي العرفي من خلال المعايير الآتية[7]:

---

[1] _ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 35، يُنظَر أيضاً:

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص29_30

[2] _ عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2000م، ص104

[3] _ المتوكل، أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص95

[4] _ هوانغ، يان، ترجمة: هشام عبد الله الخليفة، معجم أكسفورد للتداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2020م، ص 192

[5] _ يُنظَر:

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص 266_ 267

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص35_ 36

[6] _ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص35_ 36

[7] _ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص269

الاستلزام الخطابي الحواري	الاستلزام الخطابي العرفي
قابلية الاحتساب / قابلية التَّقدير	عدم قابلية الاحتساب / عدم قابلية التَّقدير
قابلية الإلغاء/ إمكانية الإبطال	عدم قابلية الإلغاء/ عدم إمكانية الإبطال
عدم قابلية الانفصال	قابلية الانفصال
عدم التَّحديد / عدم التَّعيين	مُحدَّد / مُعيَّن

وما يعنينا بشكلٍ رئيسٍ هنا هو خصائص الاستلزام الحواري، ولعلَّنا نستطيع تفصيلها على النَّحو الآتي:

1_ قابلية الاحتساب / قابلية التَّقدير calculability:

الاستلزام الحواري قابلٌ للاحتساب؛ لأنَّ المتلقِّي يستلهمه اعتماداً على مبدأ التَّعاون وقواعد غرايس ويستدلُّ عليه من خلال مجموعة من الخطوات الاستنتاجيَّة والعمليَّات الذهنيَّة بخلاف الاستلزام العرفي فهو غير قابل للاحتساب؛ لأنّ المتلقِّي يتوصَّل إليه مباشرةً من خلال محتوى العبارة وشكلها ومعناها التَّركيبي، إلَّا أنَّ قابلية الاحتساب ليست شرطاً كافياً للتَّفريق بين الاستلزام الحواري والعرفي؛ لأنَّ الاستلزام الحواري يصبح تدريجياً عرفياً مع تكرار تداول العبارة[1].

2_ قابلية الإلغاء/ إمكانية الإبطال cancellability / defeasibility:

يمكن إلغاء الاستلزام الحواري وإزالته من خلال إضافة عبارة إلى الجملة الأصليَّة تحول دون تحققها من دون الوقوع في التَّناقض، وتُعدُّ قابلية الإلغاء هذه أهم سمة فارقة بين الاستلزامين الحواري والوضعي؛ إذ يمكن إلغاء الاستلزام الحواري من دون حدوثِ تناقضٍ بخلاف الاستلزام العرفي الذي يؤدي إلغاؤهُ إلى حدوث التَّناقض[2].

3_ عدم قابلية الانفصال non-detachability:

فالاستلزام الحواري غير لصيق بالألفاظ فهو غير قابل للانفصال عن المعنى الدلالي للعبارة بتغيير الألفاظ خلافاً للاستلزام العرفي الذي يتسم بسمة عدم الانفكاك من الألفاظ؛ لأنَّ الاستلزام الحواري يتعلَّق بالمحتوى الدلالي للكلام المنطوق لا بصيغته اللغوية وشكلها، بمعنى أنَّهُ لا ينفصل عن المحتوى الدلالي للقول إذا استُبدلت المفردات أو العبارات بمرادفاتها، ويُمثِّلُ عدم قابلية الانفصال سمةً فارقةً بين الاستلزام الحواري وأنواع الاستدلال التداولي الأخرى مثل الافتراض المُسبَق presupposition[3].

---

[1] _ يُنظَر:

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص270

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص41

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص41

_ عكاشة، محمود، النَّظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) " دراسة المفاهيم والنَّشأة والمبادئ"، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013م، ص 93

[2] _ يُنظَر:

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص270

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص39

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص39

_ عكاشة، محمود، النَّظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) " دراسة المفاهيم والنَّشأة والمبادئ"، ص 92_ 93

[3] _ يُنظَر:

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص271

4_ عدم التَّحديد / عدم التَّعيين indeterminacy:

فالاستلزام يختلف عن المعنى الدلالي بأنَّهُ مُتغيّرٌ غيرُ ثابتٍ؛ إذ يصعب تحديده وتعيينه في بعض الحالات، ونعني بالتَّغيُّر هنا أنَّ الاستلزام متغيرٌ بتغيُّر السياقات التي تكتنفه، فالاستلزام قد يختلف ضمن السِّياق ذاته بشرط تكوُّن السِّياق خلال عملية الاستدلال وعدم تكوُّنه مُسبقاً، وتُمثِّلُ الاستعارات مثالاً مناسباً بالنسبة لظاهرة عدم التَّحديد في الاستلزام الحواري، فكلَّما كانت الاستعارة أكثر إبداعاً كان الاستلزام أقل تحديداً، وبالعكس كلما كانت الاستعارة أقل إبداعاً كان الاستلزام أكثر تحديداً[1].

الاستلزام الحواري عند علماء العربية:

إنَّ ظاهرة الاستلزام الحواري وإن ظهرت مع غرايس فإنَّها لم تكن خفيَّةً على علماء العربية القدماء من نحويين وبلاغيين ومفسِّرين وأصوليين؛ ولم تكن مفاهيم الإضمارات والمعاني المُضمَّنة والاستلزام الحواري بغريبةٍ عليهم؛ فقد تبدَّى إدراكهم لهذه الظَّاهرة من خلال معالجتهم عدة مصطلحات كالاستلزام واللزوم والاقتضاء والتَّضمُّن والمقصود والمنطوق والمفهوم ودلالة الحال والمعنى ولازم المعنى والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحرفي[2]، كما دُرس الاستلزام الحواري لديهم تحت عدَّة مُسمَّيات مثل: دلالة المفهوم، والمعنى الفرعي، والمعنى المقامي، والأغراض التي تُؤدّيها الأساليب...الخ[3].

فقد برزت هذه الظَّاهرة لدى سيبويه (ت180هـ)، فقواعد التبليغ في كتاب سيبويه تتوافق مع مبادئ الاستلزام الحواري لدى غرايس، كما تمثَّلت هذه الظَّاهرة لدى الإمام الغزالي(ت505هـ) في كتابه "المستصفى في علم الأصول"؛ فقد بينَّ فيه كيفية التحوُّل من المعنى الصَّريح إلى المعنى المُستَلزَم، كذلك تجلَّت هذه الظَّاهرة لدى السَّكاكي (ت 626هـ) في كتابه مفتاح العلوم من خلال تقديمه نماذج حيَّة واقعية للخطاب اللغوي تعالج ظاهرة الأفعال الكلاميَّة[4].

فقد تبلورت فكرة الاستلزام لديه في معالجته مفهوم الكناية التي تقوم على الانتقال من المعنى اللازم إلى المعنى الملزوم [5]،إذ يقول: ((إنَّ الكلمة لا تفيد البتَّة إلَّا بالوضع، أو الاستلزام بوساطة الوضع، وإذا استُعمِلَت فإمَّا أن يراد معناها وحده، أو غير معناها وحده، أو معناها وغير معناها معاً، فالأوَّل هو الحقيقة في المفرد... والثاني: هو المجاز في المفرد... والثالث

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص39_40

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص39_40

_ عكاشة، محمود، النَّظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) " دراسة المفاهيم والنَّشأة والمبادئ"، ص 93

[1] _ يُنظَر:

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، ص272

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص40

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، ص43

_ عكاشة، محمود، النَّظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) " دراسة المفاهيم والنَّشأة والمبادئ"، ص 93

[2] _ شعبان، إيمان عطية، الاستلزام الحواري بين الرؤية الغربية الحديثة ورؤية التراث العربي، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، المجلد 32، العدد 126،ص 12_17

[3] _ يُنظَر:

_ أدراوي، العيَّاشي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2011م، ص 25

_ عز الدين، عزيز، ظاهرة الاستلزام الحواري في التراث اللغوي العربي والدرس اللساني الحديث (دراسة تأصيلية)، رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة باتنة1(الحاج لخضر)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، 2021/2020م، ص 58

[4] _ عز الدين، عزيز، ظاهرة الاستلزام الحواري في التراث اللغوي العربي والدرس اللساني الحديث (دراسة تأصيلية)، ص 58

[5] _ السكاكي، أبو يعقوب يوسف؛ تحقيق: نعيم زرزور، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م، ص331_415

هو الكناية...ثم إنَّ الحقيقة في الجملة: إمَّا أن تكون مقرونة بإفادة مستلزم، أو لا تكون. والأولى: داخلة في الكناية، والثانية: داخلة في التَّصريح))[1]. وبذلك فإنَّ الكناية تشتملُ على الرَّمز والإشارة والإيماء والتَّلويح والتَّعريض، وسياق الحديث يسهم في الكشف عن هذه الخبايا[2]، فعبَّر السكاكي بذلك عن الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى الضمني خلال عملية التَّأويل والفهم للكناية مفرِّقاً بذلك بينها وبين المعنى الحرفي المباشر.

كما فرَّق عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) بين "المعنى" أي المعنى الحرفي الذي يتوصَّل إليه المُتلقِّي من دون واسطة من خلال ظاهر الصيغة التَّركيبية، و" معنى المعنى" أو المعنى المفهوم أو المعنى الضِّمني أو المعاني الثواني المُضمَّنة التي يستدلّ عليها المُتلقِّي بواسطة إعمال عقله مستنداً إلى المعنى الحرفي، وبذلك نجد توافقاً بين معنى المعنى لدى الجرجاني والإضمارات الحوارية في التداولية الحديثة[3]، فكلاهما يُقصَد به المعنى الثَّاني الذي يتأتَّى للمتلقي من خلال عملية التَّأويل والفهم انطلاقاً من المعنى أو المعنى الحرفي.

وقد طابق عبد الهادي الشَّهري بين مُؤدَّى الاستلزام الحواري ومفهومه لدى غرايس، والمفهوم لدى الأصوليين، إذ يقول: ((يُعبِّر المُرسِل بالمفهوم، بدلاً من اقتصارهِ على التَّعبير عن قصدهِ بالمنطوق، والأصوليون يُفرِّقون بين منطوق الجملة ومفهومها، ومنطوقها هو ما يتبادر إلى ذهن السَّامع مباشرةً من السَّماع لهذه الجملة، ومفهومها ما تُستَعمَل له هذه العبارة بطريقة غير مباشرة، وقالوا مفهوم المخالفة ومفهوم الموافقة ويُفيد تماماً ما يقصدهُ غرايس بالاستلزام في أثناء الحوار الذي يدور بين طرفي الخطاب فهو نتيجة لما يدور بينهما))[4].

ب_ الدِّراسة التَّطبيقيَّة:

الاستلزام الحواري في قصيدة "دمشق الشَّام"[5] للشاعر "توفيق أحمد":

تبقى الدِّراسة النَّظريَّة قاصرةً عن إيصال الظَّواهر اللغويَّة وعرضها وإيضاحها بشكلٍ وافٍ للمتلقِّي إذا لم تُرفَق بدراسةٍ تطبيقيَّةٍ توضِّح كنهها وماهية مصطلحاتها وآلية عملها، من هنا كان لا بدَّ لنا من إجراء دراسة تطبيقية تحليلية لظاهرة الاستلزام الحواري، وقد اخترنا نص "دمشق الشَّام" للشاعر توفيق أحمد مسرحاً لهذا التَّطبيق لما وجدنا فيه من تجلٍّ فعليٍّ لهذه الظَّاهرة، بالإضافة لما تتمتَّع به مدينة دمشق من مكانةٍ عريقةٍ أصيلةٍ لدى أبنائها ولدى الشعوب العربية والغربية.

يقول توفيق أحمد في نصِّه "دمشق الشَّام":

1_ على أراضيكِ يرتاحُ الزَّمانُ هنا الصَّوتُ أنتِ وسِحرُ الغوطتينِ صدى

2_ إلياذةُ الغيمِ في أحضانكِ انسكبتْ هُزِّي بجذعِ النَّدى واسَّاقطي بَرَدا

3_يا شامُ كأسيَ إلَّا منكِ فارغةٌ سواكِ يا حلوتي كلُّ الكؤوسِ سدى

4_ يا وردة العمرِ أنتِ الرُّوحُ في جسدي هل تخفقُ الرُّوحُ إنْ لم تسكنِ الجسدا

5_ لمَّا مدَدْتُ يدي للحور ناولني* يداً .. فذاب هوى القلبينِ واتَّحدا

---

[1] _ المرجع نفسه، ص414_415

[2] _ المرجع نفسه، ص403

[3] _ شعبان، إيمان عطية، الاستلزام الحواري بين الرؤية الغربية الحديثة ورؤية التراث العربي، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، المجلد 32، العدد 126،ص 8_9

[4] _ الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م، ص429_ 430

[5] _ أحمد، توفيق، الأعمال الشِّعريَّة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الثانية، 2016م، ص 462_464

6_ هربتُ منّي إلى عينيكَ يا بردى	هروبَ مَنْ جاءَ ظمآناً ليبتردا
7_ يا ساكبَ الخصبِ من ريَّاكَ منهمراً	كيف اختصرتَ مياه الغيمِ في بردى
8_ أرجوحتي قمرٌ فوق الغصونِ غَفَت	يا ليتَ أرجعُ في أفيائها ولدا
9_ مآذنٌ ...أم مرايا النورِ شامخةٌ	فيها النَّدى خاشعٌ للوردِ قد سجَدا
10_ تلا فضاؤكِ في قلبي بلاغتَهُ	من شدة الصَّحوِ شبَّ الغيمُ وانعقدا
11_ كلُّ النُّسورِ طَوَت في الأفقِ أجنحةً	إلَّا جناحك علَّا صار ألفَ مدى
12_ أنتِ الوفيَّةُ حَسبُ النَّاسِ قد شهدوا	أنَّ السَّحابَ وَفَى الأصحابَ ما وَعَدا
13_ كلُّ الشَّمائلِ بعضٌ من تألُّقها	مهما جهدْتَ فلن تُحصي لها عددا
14_ تفَّاحكِ الأزليُّ الحلوُ في دمنا	يُغري بشهدٍ لهُ طِيبُ الهوى شَهِدا
15_ وقاسيونُ ، يدٌ للشهبِ تقطفها	وقاسيونُ لصدِّ الرِّيحِ مُذْ وُجِدا
16_ وقاسيونُ كمثلِ الشَّمسِ يحرسنا	إذا تولَّاكِ يوماً مَن بنا جحدا
17_ وقاسيونُ على رمحِ الدّجى عَلَمٌ	تستلهمُ الشُّهبُ منهُ الهديَ والرَّشدا
18_ إذا أراد قطافَ البرقِ كانَ فماً	وإنْ أرادَ رحابَ الأمسِ صارَ غدا
19_ خذُوا دموعي، ثيابي، وانسيابَ دمي	وعلِّقوها على محرابها رَصَدا
20_ بَنُوكِ يا شامُ من عِزٍّ ومكرمةٍ	بَنَوكِ .. تيهي فخاراً .. عانقي الأبدا

لطالما كانت دمشق معشوقة الشعراء العرب القدماء والمعاصرين، فقد ترنَّم بأمجادها وعراقتها وأصالتها أبناء سوريا والوطن العربي. وكانت بالنسبة لهم رمز العزة والصمود وموئل الحضارة ومنبع الدفء والحنان وجنة الله على أرضه.

إلَّا أنَّ فيض هذه المعاني والمشاعر لدى هؤلاء الشُّعراء لم تُطقهُ ألفاظ اللغة المباشرة وعجزت كثيراً عن استيعابه والبوح بمكنوناته، فانفجرت رؤى الشُّعراء في دمشق في دلالاتٍ مباشرةٍ وغير مباشرةٍ أودعوها تراكيبهم وصورهم وشحنوها من تضاعيف أحاسيسهم لتتماهى اللغة مع العواطف والخيال في رسمِ أبدع الصُّور اللفظيَّة والمعنويَّة في هذه المدينة الأزليَّة.

والشَّاعر توفيق أحمد ابن محافظة حماة من الشُّعراء السوريين الذين تغنَّوا بدمشق العروبة في غير قصيدة، ومنها قصيدته هذه "دمشق الشَّام" التي استهلَّها بهذه العنونة وكأنَّهُ يختصرُ بلاد الشَّام كلها في دمشق، ويجعلُ دمشقَ أيقونةً وبؤرةً لكل بلاد الشَّام تنتفي بانتفائها وتوجد بوجودها.

وهو إذ يعزف أنشودته هذه في دمشق ينهل من معين معجمه اللغوي ويستقي من فيض أحاسيسه ويتخيَّر من خياله الشِّعري ليصب كل هذه المنابع مرَّةً واحدةً في لوحةٍ شعريَّةٍ مرئيَّةٍ مسموعةٍ تنتظم تراكيبها وصورها في معانٍ مباشرةٍ وضمنيَّةٍ وصورٍ فنيَّةٍ حقيقيَّةٍ ومجازيَّةٍ يستعصي على المتلقِّي إدراك خفاياها واستكشاف أبعادها ومراميها من دون الغوص في مضامينها ودلالاتها الخفيَّة، من هنا تبرز ضرورة تحليل الدَّلالات الحرفيَّة والمُستَلزمة واستكناه المعاني المباشرة والضِّمنيَّة في عملية تذوق النَّص.

* _ هكذا وردت في الدِّيوان.

ونص الشَّاعر توفيق أحمد "دمشق الشَّام" يكتنفُ جملةً من الدلالات الأصول و الدلالات المُستَلزَمة تعاضدت جميعها بشكلٍ متناوبٍ في رسم صورةٍ متكاملةٍ لمدينة دمشق في ذهن الشَّاعر. وقد جاءت الدلالات الضِّمنيَّة نتيجة خروقاتٍ في قواعد غرايس الحواريَّة، ففي البيت الأوَّل:

_ على أراضيكِ يرتاحُ الزَّمانُ هنا الصَّوتُ أنتِ وسِحرُ الغوطتينِ صدى

أراد الشَّاعر أن يبيّن أنَّ دمشق هي بلد الطَّمأنينة والسَّلام النَّفسي لكنَّه لم يقلها صراحةً، فلم ينسب الرَّاحة للأشخاص بل نسبها للزَّمان ليخرق بذلك قاعدة المناسبة، فمن يشعر بالارتياح أو عدمه هم البشر وليس الزَّمان، ولعلَّ الشَّاعر رمى لأبعد ممَّا يتوقَّع المتلقِّي، فلربَّما أراد أن يشير إلى أنَّ دمشق هي منبع الرَّاحة في كلِّ وقت وعلى مرِّ العصور.

كما خالف الشَّاعر قاعدة الكيف عندما قصر الصَّوت على دمشق وحدها، وهذا ممَّا لا يُصدِّقه عقل، ولا ريب أنَّ الشَّاعر أراد بالصَّوت هنا صوتاً آخر مخالفاً لما عهدناه وعرفناه من أصوات، فلربَّما أراد به نداء الوطن لأبنائه، ذلك النِّداء المُفعم بالحب والاحتواء والجمال والمعاني العظيمة كما هو نداء الأم لأبنائها، يتبيَّن ذلك من خلال جعله جمال الغوطتين الأخَّاذ ترداداً لذلك الصَّوت المُنطلِق من بؤرة الحب ومركزه دمشق، هذا الصَّوت العظيم الذي يتلاشى أمامه كل صوت ولا يعادله أيُّ صوتٍ ولا يتردد صداه إلَّا في معاني الجمال والحب في الغوطتين.

ولم تكن دمشق كما يراها توفيق أحمد موئل الرَّاحة والصَّوت فقط، بل كانت أكثر من ذلك بكثير، إنَّها موئل الأساطير والنِّعَم المباركة، ففي قول الشَّاعر:

_ إلياذةُ الغيمِ في أحضانكِ انسكبتْ هُزّي بجذعِ النَّدى واسَّاقطي بَرَدا

نرى انحرافاً عن الدلالات الحقيقيَّة إلى دلالات ضمنيَّة أبعد رمزاً وأكثرَ إيحاءً، ففي الشَّطر الأوَّل خرق الشَّاعر قاعدة الطَّريقة فجاء كلامهُ غامضاً مُبهماً يستعصي على المُتلقِّي فهمه واستيعابهُ مباشرةً؛ لأنَّه ليس للغيم من إلياذة، فالإلياذة قصيدة شعريَّة ملحميَّة للشاعر الإغريقي"هوميروس"، كما خالف الشَّاعر قاعدة الكيف عندما جعل هذه القصيدة تنسكب، فما ينسكب هو الماء والسَّوائل الأخرى، وبهذا يتَّضح أنَّ ما أراده هو مياه ذات دلالاتٍ عظيمةٍ في دمشق، ولم يكن هذا الخروج عن القواعد اعتباطيَّاً بل لمعانٍ ضمنيَّةٍ توخَّى الشَّاعر إيصالها للمتلقِّي بأسلوب احترافيٍّ بلاغيٍّ جميل، تتكشَّف ملامحهُ في الشَّطر الثَّاني بما يحتويه من خروقاتٍ، ففي قوله: "هُزّي بجذعِ النَّدى" تناصٌ مع سورة مريم في قوله تعالى: ((وهُزّي إليكِ بجذع النَّخلة تُسَاقِط عليكِ رُطباً جَنيًا))[1]، فالأشجار هي التي تمتلك الجذوع وليس النَّدى كما يرى توفيق أحمد وفي رؤيته هذه خرقٌ لقاعدة المناسبة؛ لأنَّه نَسَبَ الجذوع لما ليس لها، ثمَّ إنَّهُ خرق هذه القاعدة مرَّةً أخرى عندما جعل البَرَد يتساقط من النَّدى، فالبَرد حبَّاته قاسية، والنَّدى قطراته لطيفة وفي هذا خرقٌ لقاعدة الكيف أيضاً، إلَّا أنَّ تأويل الشَّطرين الأوَّل والثَّاني يُنبئ بخرقٍ آخر لهذه الدَّلالة بسبب غموض المعنى المُراد واستعصاء إدراكه من قبل المُتلقِّي، وهو خرقٌ لقاعدة الطَّريقة يتمثَّل في خروج دلالة بردا من حبَّات البَرَد إلى نهر بردى الشَّهير في دمشق، هذا النَّهر الذي رآه الشَّاعر أسطوريَّاً كما هي الإلياذة، ومباركاً كما هي الرُّطب في سورة مريم، وفي هذه الرُّؤى إسقاط للدلالات الأسطورية والدِّينيَّة التَّاريخيَّة المباركة على دمشق ومعالمها.

ودمشق ليست مصدر راحة للزمان فقط كما أشار توفيق في البيت الأوَّل، بل إنَّها منهلُ هناءٍ وسعادةٍ روحيةٍ له، ففي قوله:

[1] _ القرآن الكريم، سورة مريم، الآية 25

_يا شامُ كأسيَ إلَّا منكِ فارغةٌ سواكِ يا حلوتي كلُّ الكؤوسِ سدى

يُشير إلى أنَّ كأسه لا تمتلئ إلَّا بدمشق، فلا قيمة لأيٍّ من الكؤوس الأخرى لديه، وفي تعبيره هذا يخالف قاعدة المناسبة؛ لأنَّ الكؤوس لا تمتلئ بالمدن بل بالسَّوائل، وبالتَّأكيد الشَّاعر لم يذهب إلى المعنى الحرفي للبيت الشِّعري، بل لما هو خلفه أي لتأويله الدَّلالي، فهو لا يعني الكأس بمعناها الحرفي، وإنَّما يقصد دلالتها على الخمرة التي ترمز للهناء والسَّعادة الروحية لدى الكثيرين، فخمرة الشَّاعر هي دمشق ولا يمكن لأيّ مدينةٍ أخرى أن تحلَّ محلَّها وتؤدِّي دورها.

ثمَّ يعود الشَّاعر ليؤكِّد أهميَّة دمشق الرُّوحيَّة لديه بقوله:

_ يا وردة العمرِ أنتِ الرُّوحُ في جسدي هل تخفقُ الرُّوحُ إنْ لم تسكنِ الجسدا

فدمشق هي الروح التي تسكن جسد الشَّاعر، وكيف لمدينةٍ أن تسكن جسداً؟ إنَّها مخالفة لقاعدتي المناسبة والكيف، فهو يرمي إلى استقرار حبها وعشقها في جسده حتى أصبحت معادلاً موضوعيَّاً لروحه، وفي خطابه لها بوردة العمر خرقٌ لقاعدة الكيف أيضاً، فهي كناية عن شبابه الذي يراه في دمشق، فدمشق العشق تغرس روح الشَّباب فيه، هذا الإحساس النَّادر الذي لا يشعر به الإنسان إلَّا مع حبِّه وعشقه، ونرى في تركيبه الاستفهامي في الشطر الثاني خرقاً لقاعدة الطَّريقة؛ لأنَّ الشَّاعر لا يقصد الاستفهام الذي توحي به البنية السَّطحيَّة للتَّركيب، وإنَّما يقصد النَّفي بدلالة القرينة العقليَّة؛ فمقصده في البنية العميقة:

"لا تخفقُ الرُّوحُ إنْ لم تسكنِ الجسدا" وفي هذا خروجٌ من الدلالات المباشرة إلى الدلالات الضمنيَّة الخفيَّة غير المباشرة، وكان بإمكان الشَّاعر أن يطرح الدلالة المباشرة هنا تلقائيَّاً إلَّا أنَّه عمد إلى الدلالة الضمنيَّة ليجعلها أعمق تأثيراً وإقناعاً لدى المُتلقِّي، إلَّا أنَّ تصوُّر الشَّاعر هنا لحقيقة خفقان الرُّوح يعتريه اللبس؛ لأنَّ الرُّوح مطلقةٌ وهذا الخفقان ليس مشروطاً بسكنى الجسد، ممَّا يجعل المُتلقِّي حائراً في متاهات التَّأويل بين تصوُّر الشَّاعر ومقصده الدلالي العميق من جهة، وحقيقة الرُّوح التي يعيها من جهةٍ أخرى.

ثمَّ إنَّهُ يعود ليؤكِّد حبَّه لدمشق بجعلها حبيبةً من حور الجنَّة بقوله:

_ لمَّا مدَدْتُ يدي للحور ناولني* يداً .. فذاب هوى القلبينِ واتَّحدا

وفي قوله هذا خروج عن الدَّلالات الحقيقية إلى دلالات استلزامية، فالحور لا توجد في الحياة الدنيا بل في جنَّات النَّعيم، وفي هذا خرق لقاعدة الكيف لجأ إليه الشَّاعر؛ لأنَّهُ لا ينظر إلى دمشق على أنَّها مجرَّد مدينة، بل هي حبيبة جميلة جدَّاً نادرة مثل حور الجنة تُحبُّه ويُحبُّها ولا مثيل لها على سطح الأرض، وهو بهذه المعاني الاستلزامية إنَّما يشير إلى تفُّرد دمشق وتميُّزها عن سائر مدن الدنيا، فهي مدينة من عالم آخر، وأيَّةُ مدينة؟ مدينةٌ ذات جمالٍ أخَّاذ من عالم الخلود مثل الحواري.

وفي قوله:" ناولني" نلمحُ خرقاً في قاعدة الطَّريقة؛ بسبب غموض عائد الضَّمير المستتر "هو" فهو يعود على مفرد مُذكَّر غائب لم يُسعف السِّياق على تحديده.

ويُعبِّر توفيق كذلك عن تعطُّشه لدمشق ونهرها الفريد "بردى" بقوله:

_ هربتُ منِّي إلى عينيكَ يا بردى هروبَ مَنْ جاءَ ظمآناً ليبتردا

* _ هكذا وردت في الديوان

إلَّا أنَّ بلاغته هنا فاقت كل معاني الشَّوق والتَّعطُّش، فمهما تكن حدة شوق الإنسان للأحبَّة لا يمكن له أن يتجرَّد من ذاته كما هو توفيق أحمد الذي هرب من نفسه ليلتجئ إلى بردى، فأيُّ حبٍّ هذا وأيُّ تعطُّشٍ يجعل الإنسان يهرب من نفسه مهرولاً قاصداً مَنْ يُطفئ نار تعطُّشه وعشقه؟ والشَّاعر بتعبيره هذا إنَّما يخرق قاعدة الكيف؛ لأنَّه من المُستحيل عقلاً أن يهرب الإنسان من ذاته فهي معه وتلازمهُ أينما كان، وكان لجوء الشَّاعر إلى هذه البلاغة ليعبِّر عن الحب والتعطُّش الكبير إلى بردى، هذا الشَّوق الذي غيَّبه عن كلِّ شيءٍ حتى عن نفسه، وجعل تفكيره مقصوراً على بردى وحده.

وبردى بالنِّسبة للشَّاعر ليس مصدراً لري التَّعطُّش فقط، بل إنَّهُ يراه كل مياه الدنيا، ففي قوله:

_ يا ساكبَ الخصبِ من ريَّاكَ منهمراً كيف اختصرتَ مياه الغيمِ في بردى

يجعل مياه الغيم لا تنسكب إلا في بردى، وفي هذا خرقٌ لقاعدة الكيف؛ لأنَّ قوانين الطبيعة تُقرُّ بهطول الأمطار في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ أنهار الدُّنيا، لكنَّ توفيق لم يعنِ الدَّلالة الحرفيَّة بل قصد دلالةً استلزاميَّةً مفادها تعظيم شأن هذا النَّهر كما لو كان المنبع المائي الوحيد على سطح الأرض،كما أننا نلمح خرقاً آخر للقواعد الحوارية في قوله: " يا ساكبَ الخصبِ" وفي هذا خرقٌ لقاعدتي المناسبة والكيف؛ لأنَّ ما يُسكَب هو الماء وليس الخصب وهو مجاز لجأ إليه الشَّاعر ليرمز إلى خصب مدينة دمشق النَّاجم عن جريان نهر بردى فيها.

ودمشقُ لا تحضر في ذهن الشَّاعر بملامحها العامَّة فقط، بل إنَّهُ يستذكر تلك الملامح الخاصَّة التي تتعلَّق به وبطفولته، إذ يستذكر الشَّاعر أرجوحتهُ المنصوبة بين أغصان الأشجار بقولهِ:

_ أرجوحتي قمرٌ فوق الغصونِ غَفَت يا ليتَ أرجعُ في أفيائها ولدا

وفي مقولته هذه إنَّما يُخالف مبدأ الطَّريقة والمناسبة والكيف، ويأتي خرق مبدأ الطَّريقة من الغموض واللبس الذي يعتري هذه العبارة، وهذا الغموض واللبس يُعزَى إلى التَّكثيف الدَّلالي النَّاجم عن تراكم الصُّور الفنيَّة، وهو يخالف مبدأ المناسبة في قوله "أرجوحتي قمرٌ"، أمَّا مبدأ الكيف فقد نقضهُ من خلال جعله الأرجوحة تغفو، والشَّاعر إنَّما ينحرفُ عن الدَّلالات المُباشرة هنا مُتوخيَّاً الأسلوب التَّضميني لِما اِرتسم في ذاكرته من صورةٍ تلك الأرجوحة، ولِما انطبَعَ في قلبهِ من مشاعر الحب والحنين للماضي، فقد تراءت له الأرجوحة في شكلها الهلالي كالقمر، وما كانت الأرجوحة المنصوبة بين الأغصان لتغفو، بل الطِّفل الذي كان يُودَع فيها منذ عهدٍ بعيدٍ وهو الشَّاعر، وتبرزُ مشاعر الشَّوق والحب والحنين لهذه الأرجوحة وذكرياتها في قولهِ: "يا ليتَ أرجعُ في أفيائها ولدا"

وقد لجأ الشَّاعر إلى أسلوب التَّمنيّ؛ لأنَّهُ يعلم استحالة عودته طفلاً في ظلال تلك الأرجوحة، وجاء التَّمنّي هنا بحمولةٍ دلاليَّةٍ مزدوجة هي: الحبُّ والحنين للماضي، واستحالة استرجاعهِ في الحاضر.

ودمشقُ عظيمةٌ لدى توفيق بكل جزئيَّاتها، وهو في كلِّ مرَّةٍ يحاول إسقاط ما يعتري فكره وقلبه على نصِّهِ ببلاغةٍ فنيَّةٍ عاليةٍ، ففي قوله:

_ مآذنٌ ...أم مرايا النورِ شامخةٌ فيها النَّدى خاشعٌ للوردِ قد سجَدا

يخرق الشَّاعر قاعدة المناسبة؛ فهو لا يقصد دلالة الاستفهام بسؤالهِ؛ لأنَّ المآذن جميعها تُشعُّ في السَّماء العالية، فلا يُعقَل أن نتساءَل عمَّا هو معروفٌ ومعلومٌ للعامَّة؛ وإنَّما قصدَ الشَّاعر دلالةً استلزاميَّةً أخرى تختبئ وراء تلك الدَّلالة الحرفيَّة وهذه الدَّلالة الضِّمنيَّة تتمثَّل في تعظيم شأن مآذن دمشق كما لو كانت هي المآذن الوحيدة التي تشعُّ في السَّماء العالية، ويبدو

لهذا التَّعظيم هنا بعدان: أحدهما ديني يُمثِّلهُ التَّركيب السَّابق لأم المعادلة، والآخر عمراني يُمثِّلهُ التَّركيب اللاحق لأم المعادلة، وتأتي أم المعادلة العاطفة هنا لتجمع بين الدَّلالتين في عمق النَّص وإن كان ظاهرهُ يُشير إلى طلب تعيين أحدهما، ويُستدلُّ على دلالة جمعها بين المعاني بالقرينة العقليَّة، فالمآذن جميعها مناراتٌ في السَّماء العالية، كما أنَّ الشَّاعر يخرق في تركيبه الاستفهامي هذا قاعدة الكم بسبب حذفه أداة الاستفهام "الهمزة"، وقد جاءت "أم" المعادلة قرينةً لفظيَّةً دالةً على عملية الحذف هذه.

ثمَّ ينتقلُ توفيق إلى معنىً آخر من معاني التَّعظيم في قولهِ: "فيها النَّدى خاشعٌ للوردِ قد سجَدا" فالشَّاعر لم يقصد بهذه الجملة الخبريَّة الغرض الأساسي منها وهو الإخبار، بل رمى إلى دلالةٍ استلزاميَّةٍ أخرى هي التَّعظيم، وبذلك يكون قد خرقَ قاعدة المناسبة في هذه الجملة بخروجها من دلالة الإخبار إلى دلالة التَّعظيم، وخالف مبدأ الطَّريقة أيضاً بسبب تقديم الجار والمجرور "فيها" على بقية أركان الجملة، ويأتي هذا الخرق التَّركيبي لغاية دلالة التَّعظيم هذه ولمزيد اعتناءٍ واهتمامٍ بهذه المدينة، كما أنَّهُ خرج على قاعدة الكيف في هذه الصورة الفنيَّة؛ لأنَّ النَّدى كما هو معروف يعتلي الزُّهور، والزُّهور تتزيَّن بقطرات النَّدى التي تعلوها كالتِّيجان، فكيف لهُ أن يخشع لها ويسجد وهو تاجٌ على رأسها؟ ويبدو أنَّ الشَّاعر أرادَ أن يُخرج زهور دمشق من الصورة المعهودة لكل زهور الدُّنيا التي تتزيَّن بالنَّدى، من خلال إضفاء صفة القداسة الدِّينيَّة على هذه الزُّهور وذلك عندما جعلَ النَّدى يخشع لها ويسجد.

ولم تكن دمشق لدى توفيق هي دمشق العظيمة فقط، بل كانت مصدر الإلهام والقوافي أيضاً، ففي قولهِ:

_ تلا فضاؤكِ في قلبي بلاغتَهُ من شدة الصَّحوِ شبَّ الغيمُ وانعقدا

يخرق الشَّاعر قاعدة الطَّريقة بسبب الغموض واللبس الذي يعتري جمل البيت الشِّعري، كما يخالف قاعدة الكيف بسبب الجمع بين المتناقضات في الشَّطر الثَّاني، فكيف يمكن أن يكون للفضاءِ بلاغةٌ تُتلَى؟ وكيف يمكن أن يكون صحو الطَّقسِ الشَّديد باعثاً على تشكُّل الغيوم وتشابكها؟

لقد انزاحت دلالات التَّراكيب من الدلالات المباشرة إلى دلالاتٍ ضمنيَّةٍ استلزاميَّةٍ عبَّرت عن استلهام الشَّاعر معانيه وقوافيه من دمشق، فحبُّ دمشق الذي سكنَ فؤاد الشَّاعر كان باعثاً على انطلاق بلاغتهِ الشِّعريَّة، ومن شدة صفاء ذلك الحب انعقدت أشعار الشَّاعر وقوافيه، إلَّا أنَّ المعنى في الشَّطر الثَّاني قد لا يهتدي المتلقِّي لتأويله على هذا الوجه، فيراه متناقضاً غامضاً خاطئاً، من هنا كان خرق قاعدتي الكيف والطَّريقة فيه، فانعقاد الغيوم يقتضي طقساً داكناً متغيِّراً لا شديد الصَّحوِ والإشراق.

يتابع توفيق إعجابه بمدينة دمشق وتعظيمهُ إيَّاها في السِّياق اللاحق إذ يقول:

_ كلُّ النُّسورِ طَوَت في الأفقِ أجنحةً إلَّا جناحكِ* علَّا صار ألفَ مدى

_ أنتِ الوفيَّةُ حَسبُ النَّاسِ قد شهدوا أنَّ السَّحابَ وَفَى الأصحابَ ما وَعَدا

_ كلُّ الشَّمائلِ بعضٌ من تألُّقها مهما جهدْتَ فلن تُحصي لها عددا

فأسلوب الشَّاعر في هذه الأبيات الثلاثة ذو طابعٍ خبريّ، لكنَّهُ لم يقصد إلى الإخبار عن صفات هذه المدينة بل قصدَ تعظيم شأنها وإبداءِ إعجابهِ بها، لتتزاح الدلالات المباشرة وتخرج من دائرة الخبر إلى قصد التَّعظيم، وقد خرق في البيت

* ضُبطَت (ك) في كلمة (جناحك) في الدِّيوان بالفتح وهذا يندرج ضمن التَّصحيف، والصَّحيح ضبطها بالكسر؛ لأنَّ الضَّمير (ك) عائدٌ على دمشق بدلالة السِّياق السَّابق واللاحق.

الحادي عشر قاعدتي المناسبة والكيف، فكيف يمكن أن يكون لمدينةٍ كدمشق جناحٌ يُحلّق بها في السَّماء العالية كالنُّسور، لقد تحوَّلت الدَّلالة هنا من دلالة الطَّيران المباشرة اللصيقة بالطيور والجوارح إلى دلالة ضمنيَّة توازيها في المعنى هي دلالة العلو والرِّفعة، فالأولى رفعةٌ في السَّماء وتحليقٌ في رحابها، والأخرى رفعةٌ في عالم العزَّة وميدان الحضارة والتَّقدُّم والقوَّة، ليس هذا فحسب؛ لأنَّ الجوارح قد تتوقَّف عن الطَّيران والتَّحليق، أمَّا دمشق فمسارها الرِّفعوي لا محطَّات فيه ولا استراحات، لتفوق بذلك النُّسور عظمةً ورفعةً وقوَّةً. وبذلك فإنَّ الشَّاعر يُضفي على دمشق طابعاً تعظيميَّاً مزدوجاً مغادراً دلالاته المباشرة في هذا البيت الشِّعري إلى دلالاتٍ استلزاميَّةٍ مرَّتين: الأولى بجعله دمشق نسراً يُحلِّق في السَّماء العالية، والثَّانية بجعله هذا النِّسر لا يتوقَّف خلال رحلته، وأيُّ نسرٍ فريدٍ هذا الذي يتابع مسيره دائماً ولا يقبض جناحيه إطلاقاً؟!

في سياقٍ مشابهٍ يتابع الشَّاعر إعجابه بهذه المدينة في البيت الثاني عشر قاصداً تعظيمها من خلال خرقه قواعد المناسبة والكم والكيف، فقد خرق قاعدتي المناسبة والكيف عندما استعار صفة الوفاء من البشر وألحقها بدمشق والسَّحاب، كما خرق قاعدة الكم عندما اختزل تشبيه دمشق بالسَّحاب في البنية السَّطحيَّة للتَّركيب وألمَحَ إلى ذلك إلماحاً مُعتمِداً على سياق الشَّطر الثَّاني وبراعة تأويل المُتلقِّي لدلالة التَّركيب، فأصل التَّركيب في البنية العميقة:

أنتِ الوفيَّةُ كالسَّحاب حَسبُ النَّاسِ قد شهدوا أنَّ السَّحابَ وَفَى الأصحابَ ما وَعَدا

ويأتي وصف السَّحاب بالشَّطر الثَّاني بالوفاء قرينةً لفظيَّةً دالةً على عمليَّة الحذف هذه، يتبدَّى ذلك من خلال عملية الاستدلال الآتية:

دمشق وفيَّة & السَّحاب وفي ⇐ دمشق كالسَّحاب في الوفاء

ويبدو أنَّ الشَّاعر قصد تعظيم دمشق في هذا البيت الشِّعري من خلال أبعادٍ عديدةٍ تكتنفُ الدَّلالات المباشرة والضِّمنيَّة: أحدها حسيٌّ ذو دلالةٍ مباشرةٍ يتَّضح بوصفها بالسَّحاب، والآخر معنويٌّ ذو دلالةٍ مباشرةٍ أيضاً يتَّضح بوصفها بالوفاء، فوصفها بالسَّحاب يستلزم دلالات العلو والرِّفعة والعطاء، كما أنَّ وصفها بالوفاء يستلزم أيضاً دلالة العطاء؛ لأنَّ الشَّاعر ربط دلالة الوفاء بالسَّحاب وبالتَّالي بالعطاء؛ فالسُّحب لا تفي بوعودها إلاَّ عندما تغدقُ عطاياها وهي الأمطار.

إلَّا أنَّ سمات دمشق ومزاياها لا تقف عند العلو والرِّفعة والعطاء، ففي قوله:

_ كلُّ الشَّمائلِ بعضٌ من تألُّقها مهما جهدْتَ فلن تُحصي لها عددا

لا يقصد دلالة الإخبار هنا، بل يقصد دلالة التَّعظيم المُبالَغ فيه؛ لأنَّهُ جعلَ جميع الصفات النبيلة لا تُشكِّل إلاَّ جزءًا يسيراً من ملامح دمشق، فصفات دمشق الرَّائعة لا تُعدُّ ولا تُحصى، وهي تفوق الصفات النبيلة التي يعرفها البشر، والشَّاعر بهذا يخرقُ قاعدة الكيف؛ لأنَّ ما جاء بهِ مرفوضٌ عقلاً، بسبب إدراجه كليَّة الشمائل في بعضيَّتها، فما أراد قوله في باطن التَّركيب هو: "كلُّ الشَّمائلِ بعضٌ من شمائل دمشق" فكيف يمكن للكل أن يندرج في البعض؟ كما أنَّ استحالة عدِّ شمائل دمشق أمرٌ مرفوضٌ وليس ثمَّة دليلٌ لدى الشَّاعر عليه، كذلك فإنَّهُ يخرق قاعدة الطَّريقة والكم في الشطر الثَّاني بسبب الغموض واللبس في فهم دلالة التَّركيب لدى المُتلقِّي، وهذا الغموض ناجمٌ عن الإضمار في المستوى السَّطحي للبيت الشعري، فبنيته العميقة تؤول بالتَّركيب: "مهما جهدْتَ فلن تُحصي لشمائل دمشق عددا" في حين يتراءى للمتلقِّي ويُخيَّل إليه أنَّ الضمير في قوله "لها" يعود على" كل الشَّمائل" في الشطر الأوَّل، وهذا منتفٍ؛ لأنَّ الضمير في "لها" عائدٌ على "شمائل دمشق".

يتنقَّل توفيق بفؤادِهِ وعقله بين جزئيات دمشق ومعالمها ليرسم صوراً تتماهى فيها الحقائق والمشاعر والخيال، فلم يكتف بتعريجه على الغوطة ونهر بردى والأرجوحة والمآذن، بل يمتد بخياله العاطفي إلى تفاح دمشق وقاسيونها، ففي قوله:

_ تفَّاحكِ الأزليُّ الحلوُ في دمنا يُغري بشهدٍ لهُ طِيبُ الهوى شَهِدا

لم يقصد توفيق إخبار المتلقي بحلاوة تفاح دمشق فقط، بل إنه ذهبَ إلى معانٍ استلزاميَّة أخرى ربَّما توارت عن أذهان المتلقين، فالمتلقِّي للوهلة الأولى قد يرى أنَّ مقصد الشَّاعر هو إخباره بحلاوة تفاح دمشق، إلَّا أنَّ التَّأويل الدلالي البعيد للبيت يُظهر أغراضاً بلاغيَّةً بعيدةً أخرى أبلغ دلالةً من غرض الإخبار، فالشَّاعر عندما يصف تفاح دمشق بالأزلي إنَّما يفخر بعراقة دمشق وامتدادها في قدم التَّاريخ، وعندما يجعل هذا التفاح حلواً مستقراً في دم أبنائها إنَّما يُشير إلى استقرار حب دمشق في عروق أبنائها، ويأتي التَّركيب الإضافي في قوله: " طيبُ الهوى" قرينةً لفظيَّةً دالةً على إرادة مشاعر الحب، وهو في كل هذا إنَّما يخرق قاعدتي المناسبة والطَّريقة بسبب اللبس الذي يعتري بعض التراكيب في السياق العام للبيت الشعري، فكيف يمكن لتفاحٍ متناهٍ في القِدم أن يجري في عروق أبناء الحاضر؟ تَظهر هنا الثنائيَّة الضدية (الأزل/ الحاضر) في البنية العميقة للبيت لتفصح عن مراد الشَّاعر ومقصده البعيد في ترسيخ عراقة دمشق وحبها في أفئدة أبنائها.

أمَّا قاسيون فهو الوجه الآخر لدمشق، فهما وجهان لعملةٍ واحدة؛ لأنَّ قاسيون من أبرز معالم دمشق، بل إنَّهُ دمشق ذاتها؛ لأننا لا نستطيع أن نتخيَّل أو نتصوَّر مدينة دمشق من دون أن يتوارد إلى أذهاننا رمزاها البارزان(بردى/قاسيون) ولعلَّ هذا ما جعلَ الشَّاعر يتناول بردى وقاسيون في أكثر من بيت شعري، فقد خصص بردى بثلاثةِ أبياتٍ، في حين بسطَ لقاسيون أربعة أبياتٍ شعريَّةٍ، إذ يقول:

_ وقاسيونُ ، يدٌ للشهبِ تقطفها وقاسيونُ لصدِّ الرِّيحِ مُذْ وُجِدا
_ وقاسيونُ كمثلِ الشَّمسِ يحرسنا إذا تولَّاكِ يوماً مَن بنا جحدا
_ وقاسيونُ على رمحِ الدّجى عَلَمٌ تستلهمُ الشُّهبُ منهُ الهديَ والرَّشدا
_ إذا أراد قطافَ البرقِ كانَ فماً وإنْ أرادَ رحابَ الأمسِ صارَ غدا

يظهر الشَّاعر في هذه الأبيات مُمجِّداً جبل قاسيون وارتفاعه الشَّاهق، فهذا الارتفاع مكَّنهُ من قطاف الشُّهب والبرق وجعَلهُ مصدَّاً للرياح التي تعتري دمشق، كما جعلهُ كالشَّمس حِميَ وكالعَلَمِ منارةً، ويتَّضح تماماً أنَّ الشاعر لم يقصد إخبار المتلقِّي بارتفاع جبل قاسيون، فهذا معلومٌ حكماً لدى الجميع، بل أراد تعظيمهُ وتمجيد علوِّهِ، وقد استعان لتحقيق مقصده ببعض المرتفعات الشَّامخة العظيمة كالشُّهب والشَّمس والعَلَم والبرق ليغدو الارتفاع الحقيقي هنا متماهياً مع الرِّفعة المعنويَّة، إلَّا أنَّ هذه الرِّفعة المعنويَّة جاءت وفق فروقٍ دلاليَّةٍ عديدةٍ، فقاسيون مصدرٌ للأمان عندما شبههُ بالشَّمس وجعلهُ مصدَّاً للرِّياح، وهو مصدرٌ للعطاءِ عندما جعلهُ قاطفاً جانياً للشُّهبِ والبرق، وهو منارةٌ للهداية عندما جعلهُ علماً، وقد خرق الشَّاعر قاعدة المناسبة في هذه القطعة الشعرية ذات الجمل الخبريَّة لخروجها من دلالة الإخبار إلى دلالة التَّعظيم، وخرق قاعدة الكميَّة في قولهِ: "وقاسيونُ لصدِّ الرِّيحِ مُذْ وُجِدا"؛ لأنَّ التَّركيب يفتقر لبعض المعلومات النَّاجمة عن عملية حذف خبر المبتدأ "قاسيون"، فهذه الدَّلالة المباشرة تستلزم دلالاتٍ لا متناهية في ذهن المتلقِّي لترميم فراغ الحذف والتَّأويل الدَّلالي الصَّحيح للتركيب، كذلك فإنَّ الشَّاعر خرق قاعدة الطَّريقة غير مرَّة في هذه القطعة الشِّعريَّة كما في قوله:

_(وقاسيونُ، يدٌ للشهبِ تقطفها)

_(إذا أراد قطافَ البرقِ كانَ فماً)

ويأتي هذا الخرق بسبب عدم التسلسل في ترتيب الأبيات الشِّعرية، فالشَّاعر عندما أراد نسبة القطاف إلى قاسيون في البيتين(15،18) كان الأولى به ألَّا يباعد ويفصل بين هذين البيتين(15،18) ببيتين آخرين(16،17) ويبدو أنَّهُ لجأ إلى هذه المباعدة بسبب تغيير فاعل عملية القطف، وهنا خرقٌ آخر في قاعدة الطَّريقة، فالدلالات المباشرة توحي بالتساؤل: كيف يمكن لقاسيون القاطف أن يكون مرَّةً يداً، ومرَّةً فماً؟ ولعلَّ الشاعر لجأ إلى تلك المفارقات الدقيقة لأنَّهُ رأى في الشُّهب ثماراً تُجنَى وهذا الجني تناسبُه الأيادي، ورأى في البرق مياهاً تُسكَب وهذا الجنيُ تناسبُهُ الأفواه لا الأيادي.

وفي قوله: ((وقاسيونُ كمثلِ الشَّمسِ يحرسنا)) يخرق الشَّاعر قاعدتي المناسبة والكيف، فتشبيه قاسيون بالشمس صحيحٌ من جهة نسبته إلى الارتفاع والشموخ، بمعنى أنَّهُ صحيح في السياق العام لهذه القطعة الشعريَّة الممتدة بين البيتين(15،18) التي تُمجِّد ارتفاع جبل قاسيون، أمَّا من جهة الحماية والحراسة ففيه خللٌ لا يمكن رأبه بسبب غياب الشمس ليلاً، بالإضافة إلى أنَّها لم تُعرَف يوماً كحارسٍ للبشر، بمعنى ضعف التَّشبيه لضعف وجه الشَّبه بين المتشابهين، فهذا التَّشبيه لم يُقدِّم الشَّاعر الأدلَّة الكافية له ممَّا جعل دلالته غير مناسبة وغير صحيحة.

كذلك فإنَّنا نلمحُ خرقاً آخر لقاعدة الأسلوب، ففي قول الشَّاعر:

_ وقاسيونُ ، يدٌ للشهبِ تقطفها وقاسيونُ لصدِّ الرّيحِ مُذْ وُجِدا

_ وقاسيونُ على رمحِ الدّجى عَلَمٌ تستلهمُ الشُّهبُ منهُ الهديَ والرَّشدا

تناول الشَّاعر علاقة قاسيون بالشُّهب مرَّتين وذلك في الأبيات (15،17) وفي هذا خرقٌ لتسلسل الأبيات وترتيب الأفكار؛ إذ كان الأولى بالشَّاعر أن يأتي بها متسلسلةً حتى يتجنَّب شتات تفكير المُتلقِّي، ثمَّ إنَّهُ جعلَ قاسيون مرَّةً قاطفاً للشهب، ومرَّةً منيراً لها وفي هذا تناقضٌ، وكان الأولى بالشَّاعر أن يوظِّف جرماً سماويَّاً آخر كالكواكب مثلاً في التَّشبيه الثَّاني لتجنُّب اللبس الحاصل من إيراد العنصر ذاته "الشُّهب" مرَّتين في علاقتين مختلفتين مع جبل قاسيون.

ومن الخروقات الحوارية في هذه القطعة الشعريَّة نجد قوله: ((وإنْ أرادَ رحابَ الأمسِ صارَ غدا))

فقد خرقَ الشاعر قاعدة المناسبة؛ لأنَّ التَّركيب ليس ذا صلةٍ مناسبةٍ بموضوع القطعة الشعريَّة الرامي إلى تمجيد ارتفاع جبل قاسيون حقيقةً ومجازاً، كما خرق قاعدة الكيف بسبب التَّناقض الذي تُوحي به الدلالة الحرفيَّة المباشرة وهذا التَّناقض ناجمٌ عن الجمع بين المتضادَّات(الأمس/غداً)، وهو الذي يدفع المُتلقِّي إلى تأويل الدلالات المُستَلزمة الضِّمنية للوقوف على المقصد الحقيقي للشاعر، ولعلَّ الشَّاعر أراد أن يُلمِح هنا إلى قوة هذا الجبل التي تقلب الأمور رأساً على عقب، فتُحوِّلُ الأمس إلى غدٍ، وربَّما أراد الإشارة إلى عظمته، فإذا ما توخَّى الأمس أصبح هذا الجبل غداً، وفي هذا المقصد خرقٌ لقاعدة الكيف أيضاً؛ لأنَّ رمز الجبل مقرونٌ في العقل البشري بالقوة والصمود لا المستقبل الواعد، بمعنى أنَّهُ يخالف بمقصده هذا ما استقرَّ في العقل الجمعي بخصوص رمزية الجبل وتأويلاتها.

وما كان توفيق ليمجِّد دمشق ومعالمها لولا حبه لها ورغبته العارمة في التَّضحية لأجلها، إذ يقول:

_ خذُوا دموعي، ثيابي، وانسيابَ دمي وعلِّقوها على محرابها رَصَدا

فالشَّاعر يريد أن يُضحِّي بكلِّ شيءٍ لديه وبأغلى ما يملك في سبيل دمشق، وأن يُنصِّب كل تضحياتهِ لحماية صدرها ومواضعها العالية المُشرِّفة وحراستها كما لو كان وحدهُ المُؤتَمَن على هذا البلد، وهو في مقولتهِ هذهِ إنَّما يخرق قاعدة الكيف، فكيف يُمكن للدموع والدِّماء أن تُعلَّقَ على مشارف المدن؟ فالشَّاعر لم يقصد الدلالة المباشرة هنا وإنَّما قصد دلالةً

ضمنيَّةً أخرى مفادها تضحيته بأغلى ما يملك لحماية صدرها ومشارفها، كما أنَّ الشاعر يخرق أيضاً قاعدة المناسبة لخروج فعل الأمر في قوله "خذوا، علِّقوها" من معنى الأمر الحقيقي إلى معنى الالتماس.

ثمَّ يعود الشَّاعر إلى تمجيد دمشق ورفعتها في قوله:

_ بَنُوكِ يا شامُ من عِزٍّ ومكرمةٍ بَنَوكِ .. تيهي فخاراً .. عانقي الأبدا

فالشَاعر يريد في هذا البيت أن يقولها صراحةً "هي دمشق العظيمة" بعد أنَّ عبَّر عن هذه المقولة بمختلف الأنساق والتراكيب اللغوية من بداية القصيدة حتى نهايتها، فهذه المقولة تُمثِّل بؤرة النَّص والخيط الحابك لأبياته من البداية إلى النِّهاية، وهو يخرق في قوله: "بَنُوكِ يا شامُ من عِزٍّ ومكرمةٍ بَنَوكِ" قاعدة المناسبة لخروج التَّركيب من الإخبار إلى التَّعظيم فالدلالة الاستلزاميَّة للتركيب هي"دمشق عزيزة كريمة"، ويخرق قاعدة الكيف؛ لأنَّ البناء إنَّما يتمُّ باللبنات وليس بالعزِّ والمكرمة، كما أنَّهُ يخرق قاعدة الطَّريقة فقد قدَّم الجار والمجرور "من عِزٍّ ومكرمةٍ" على الفعل "بَنَوك" للعناية والاهتمام بمسألة العزة والمكرمة أكثر من عملية البناء ذاتها؛ لأنَّ مقصد الشَّاعر الجوهري هنا التَّركيز على عظمة دمشق وعزَّتها.

ويبدو أنَّ الشَّاعر أراد أن يؤكِّدَ مقصده هذا فأردف قائلاً:

"تيهي فخاراً .. عانقي الأبدا" وهو لا يريد بالتَّأكيد أن يُوجِّه أوامره إلى دمشق وإن كانت الدلالة المباشرة للفعلين "تيهي، عانقي" تُظهِر معنى الأمر، وإنَّما يتمنَّى الشَّاعر عزَّة دمشق وفخرها إلى الأبد، فهي الدلالة الضمنيَّة الاستلزاميَّة المُتوارية خلف دلالة الأمر، بل إنَّها الدلالة الكليَّة التي نطقت بها كلماته في كليَّة نصِّهِ، والشَّاعر إذ يتمنَّى لدمشق العزة والرِّفعة والعَظَمة إنَّما أراد ذلك إلى الأبد، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: "عانقي الأبدا" فالأبد لا يُعانَق كما هو معلوم من المعنى المباشر الذي خرق قاعدة الكيف، وعندما تعانقه دمشق فقد لازمها مدى الحياة، وهي الدلالة الاستلزاميَّة التي تمنَّاها الشَّاعر وقصدها.

5_ الخاتمة (نتائج البحث):

خلُصَ البحث من خلال المعالجة والتَّحليل إلى جملةٍ من النَّتائج، أبرزها:

_ يتضمَّن نص "دمشق الشَّام" كمَّاً هائلاً من المعاني الاستلزاميَّة الضمنيَّة، وقد تمَّ استكناهها والوقوف على دلالاتها من خلال آليَّات الاستلزام الحواري.

_ تمَّ الانزياح من الدلالات الحرفيَّة الصَّريحة المباشرة إلى الدَّلالات الضمنيَّة الاستلزاميَّة غير المباشرة في صور وتراكيب النَّص المدروس من خلال خرقٍ واحدٍ في مبادئ الحوار أو أكثر، وتمَّ استكشاف ذلك الانزياح اعتماداً على معطيات السِّياق والمقام وظروف إنتاج الخطاب.

_ خرق الشَّاعر مبادئ الحوار في معظم معانيه، فقد انزاحت معاني النَّص الحرفية إلى معانٍ استلزاميَّة ضمنيَّة اتَّضحت من خلال خروج الكلمات والصُّور البلاغيَّة عن معانيها الحرفيَّة إلى دلالاتٍ استلزاميَّة أخرى كما في التَّشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، بالإضافة إلى خروج معظم دلالات التراكيب الإنشائيَّة والخبريَّة إلى أغراضٍ بلاغيَّةٍ أخرى، وكان غرض التَّعظيم هو الغرض البلاغي الغالب في معظم سياقات النَّص، فمقصد الشَّاعر الرَّئيس هو تعظيم مدينة دمشق وتمجيدها، وقد وظَّف لهذه الغاية جملةً من معالم دمشق الرَّئيسة والثَّانوية في سياقاته الشِّعرية بعد أن أضفى عليها سماتٍ تمنحها

دلالات التَّمجيد والتَّقدير لدى المُتلقِّي، وكانت عراقة دمشق وأصالتها وقداسة معالمها ممَّا ساعد الشَّاعر في تحقيق مقاصدهِ وإيصالها للمتلقِّي.

_ خرق الشَّاعر كل مبادئ الحوار في نصِّهِ، وهي مبدأ الكم ومبدأ الكيف ومبدأ المناسبة ومبدأ الطَّريقة، لكنَّ نسبة الخروقات في مبدَأي المناسبة والكيف كانت الأعلى نسبيَّاً، في حين كانت في مبدأ الكم الأقل نسبيَّاً.

_ تبيَّن من خلال الدِّراسة التَّطبيقيَّة أنَّ خرق قواعد الحوار في النَّص أيَّد ما أظهرتهُ الدِّراسات العربيَّة التَّداوليَّة مُؤخَّراً من أنَّ قسمة الكلام العربي إلى خبرٍ وإنشاءٍ ليست دقيقةً؛ فاللغة الفنيَّة تختلف عن اللغة الاستعماليَّة التَّواصليَّة من ناحية الأسلوب، فالأولى تتَّسم بأسلوبٍ إنشائيٍّ وإن كان ظاهرهُ خبريَّاً، أمَّا الثَّانية فيمكن أن ينطبق عليها التَّقسيم المعروف إلى خبرٍ وإنشاءٍ.

المصادر والمراجع:

_ القرآن الكريم

_ أحمد، توفيق، الأعمال الشِّعريَّة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الثانية، 2016م.

_ أدراوي، العيَّاشي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2011م.

_ الحسن، شاهر، علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى،2001م.

_ الخليفة، هشام عبد الله، نظرية التلويح الحواري، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، 2013م.

_ السكاكي، أبو يعقوب يوسف، تحقيق: نعيم زرزور، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م.

_ شاهين، أحمد فهد صالح، النَّظريَّة التَّداوليَّة وأثرها في الدِّراسات النَّحويَّة المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتَّوزيع، إربد، الطبعة الأولى، 2015م.

_ شعبان، إيمان عطية، الاستلزام الحواري بين الرؤية الغربية الحديثة ورؤية التراث العربي، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، المجلد 32، العدد 126

_ الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م.

_ صحراوي، مسعود، التَّداوليَّة عند العلماء العرب((دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي))، دار الطَّليعة للطباعة والنَّشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2005م.

_ عبد الحق، صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007م.

– عبد الرحمن، طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2000م.

_ عز الدين، عزيز، ظاهرة الاستلزام الحواري في التراث اللغوي العربي والدرس اللساني الحديث(دراسة تأصيلية)، رسالة مُقدَّمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة باتنة1(الحاج لخضر)، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، 2021/2020م.

_ عكاشة، محمود، النَّظرية البراجماتية اللسانية(التداولية) "دراسة المفاهيم والنَّشأة والمبادئ"، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2013م.

_ فان دايك، تون.أ، ترجمة وتعليق سعيد حسن بحيري، علم النَّص(مدخل متداخل الاختصاصات)، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م.

_ المتوكل، أحمد، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، دار الثَّقافة للنشر والتَّوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986م.

_ المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيّات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الدار البيضاء، 2002م.

_ موشلر، جاك ؛ ريبول، آن، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، القاموس الموسوعي للتداولية، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، الطبعة الثانية، تونس، 2010م.

_ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011م.

_ هوانغ، يان، ترجمة: هشام عبد الله الخليفة، معجم أكسفورد للتداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2020م.